الشيخ والمريد في الفكر الصوفي التجاني

د. السعدية أوتبعزيت- المغرب-

الملخص

نحاول من خلال هذه الدراسة رصد حقيقة الشيخ والمريد في الفكر الصوفي التجاني باعتبارهما أحد المرتكزات التي اتخذتها الطريقة التجانية لتنفيذ رسالتها الدعوية الإصلاحية، والتي ساهمت في إحياء الطريق الصوفي في المغرب وخارجه، إذ كان للشيخ أحمد التجاني دورا في التأسيس والتوظيف لميادين ومقامات التصوف على تربية الناشئة والأجيال وكذا الأصول التي ترتكز عليها التربية الصوفية في صناعة جيل صالح ومشبع روحيا بمقامات الإيمان. وقد تطرق أتباع التجانية لموضوع المشيخة، وكذا في حقيقة المريد الصادق والشروط الجامعة بينه وبين شيخه. وذلك حرصا منهم لضمان استمرارية وانتشار هذا الفكر الصوفي، والاهتمام بتعميقه في نفوس مريدي الطريقة وتوسيع نفوذ الزاوية.

Abstract:

Through this study, we seek to observe the truth of the Sheikh and the Murid in the Sufi and Tijani thought, as they are among the pillars taken by the Tijani method to carry out its mission in preaching and reformation, which contributed to the revival of the Sufi path in Morocco and abroad. Sheikh Ahmed Tijani had a major role in the establishment and employment fields and statuses of Sufism for raising new and upcoming generations, as well as the assets on which Sufi education is based in the making of a valid generation that is spiritually saturated with faith. The Tijanian followers touched on the topic of Sheikhs, as well as the truth of the honest Murid and the conditions that bind him and his Sheikh. All of which are in order to ensure the continuity and spread of Sufism, to reinforce it in the hearts of its Murids, and to expand the influence of the Zawiya.

ظلت مكانة الشيخ أعلى منصب في الهيكل الإداري للزاويا، وظل الشيخ يشرف على تسيير الجهاز الإداري ويتحكم فيه، وينسق بين مكوناته، يضاف إلى ذلك أنه يقوم بتربية المريدين، ويعطي الأوراد ويلقن الطريقة لكل راغب في الانخراط في مسلكها.

واستجابة لهذا الدور الفعال تعد المشيخة، أحد المرتكزات التي اتخذتها الطريقة التجانية لتنفيذ رسالتها الدعوية الإصلاحية، والتي ساهمت في إحياء الطريق الصوفي في المغرب وخارجه، إذ كان للشيخ أحمد التجاني دور في التأسيس والتوظيف لميادين ومقامات التصوف على تربية الناشئة والأجيال، وكذا الأصول التي ترتكز عليها التربية الصوفية في صناعة جيل صالح ومشبع روحيا بمقامات الإيمان.

- 1- حقيقة الشيخ

لا يمكن أن تحقق الأهداف أو تصاب المرامي التربوية لأي طريقة من الطرق، أو تحصل مقامات التقوى والقرب، إلا بوجود الشيخ العارف بالله الواصل الموصل المأذون في تربية الخلائق، وتوجيه قلوبهم إلى الله عز وجل.

والواقع أن ممارسة الحياة الروحية وخوض غمارها ليست بالسهلة، ومن ثم كان لزاما على سالك هذا الطريق أن يستعين بخبير ومرشد معين سبق له أن سلك الطريق حتى يجنبه مزالق الأقدام. ومن هذا المنطلق أيضا اهتم أصحاب الطريقة التجانية بالموضوع، فبينوا حقيقته، وكيفية الاتصال به وصحة الاختيار للشيخ ووزن أفعاله وأحواله.

سئل الشيخ أحمد التجاني عن حقيقة الشيخ وبالضبط الشيخ الواصل؟ فأجاب بقوله: «أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عينيا وتحقيقا يقينيا»(1).

ويصف صاحب هذه المرتبة ب"الكبير"(2) مؤكدا أنه «متى عثر المريد على من هذه حضرته كان في حقه أن يلقى نفسه بين يديه كالميت بين غاسله، لا اختبار له ولا إرادة ولا عطاء له ولا إفادة، وليجعل همته منه تخليصه من البلية التي أغرق بها إلى كمال الصفاء بمطالعة الحضرة الإلهية بالإعراض عن كل ما سواها، ولينزه نفسه عن جميع الاختيارات والمرادات مما سوى هذا، ومتى أشار عليه بفعل أوامر ليحذر من سؤاله بلم وكيف وعلام ولأي شيء؟ فإنه باب المقت والطرد، وليعتقد أن الشيخ أعرف بمصالحه منه وأي مدرج أدرجه بها فإنه يجري به في ذلك كله على ما هو لله بالله بإخراجه عن ظلمته نفسه وهواها»(3).

---

(1)- حرازم برادة علي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي العباس التجاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط (1)، 1423ه/2002م، ج1، ص 91.

(2)- المصدر نفسه.

(3)- نفسه.

والواقع أن الشيخ في الفكر الصوفي التجاني يعرف بمعرفة الولي، إذ «سئل الشيخ أحمد التجاني عن معنى قولهم: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فأجاب رضي الله عنه بقوله: أما قول السائل معرفة الولي أصعب من معرفة الله، يبينه قول المرسي رضي الله عنه، لو كشف عن حقيقة الولي لَعُبِد. وحقيقة الولي أنه يسلب من جميع الصفات البشرية، ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرا وباطنا. وقول السائل معرفة الولي أصعب من معرفة الله معناه أيضا: أن الله معروف بصفات كماله، مخالف لجميع خلقه في جميع أوصافه وهي بينة، وأما معرفة الولي بالصفات التي يكون بها وليا، فإنها باطنة لا تعرف، لأن ظاهره مستو مع ظاهر غير الأولياء أكلا وشربا ونكاحا، وسعيا في أمور الدنيا كحالة الغافلين من غير الأولياء. فلذا صعبت علينا معرفته بكونه وليا، فإن الله تميزت صفاته ظاهرا على خلقه، والولي لما لم يتميز عن غير الأولياء من جنسه، شاركهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم، ولم يظهر من أوصاف ولايته للظاهر شيء، فلذا صعبت معرفته التي تميزه من أبناء جنسه. ومعنى قوله: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد، لأن أوصافه من أوصاف إلهه ونعوته من نعوته، لأنه ينسلخ من جميع الأوصاف البشرية، كما تنسلخ الشاة من جلدها، ويلبس خلعة الأخلاق الإلهية، فلو كشف للعبد لعبد الولي»(1).

بمعنى أن الولي كما يراه الشيخ التجاني هو من تحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرا وباطنا وبأنه ليست هناك صعوبة في معرفة الولي وإنما الصعوبة في معرفة الصفات التي يكون بها وليا، لأنها باطنة لا تعرف ولا يكشف عنها.

هكذا حدد الشيخ أحمد التجاني حقيقة الشيخ الذي يتبع في سائر أقواله وأفعاله، بحكم أنه يكون واصلا، قد رفعت له جميع الحجب عن النظر إلى الحضرة الإلهية.

تطرق أتباع التجانية لموضوع المشيخة، وفصلوا في أنواع المشايخ، والشروط الواجب توفرها فيهم. وقد وصف أحد التجانيين الشيخ بكونه «ليس بخالق ولا برازق، وإنما هو دال على الله وهو نائب عن الأنبياء..»([2]). وحدد أحدهم علامة الشيخ في خمس: سلامة صدره على الناس، وأن لا يكون له عدو من المؤمنين، والكرم ومحبة من أساء له، والإغضاء عن مساوئ الناس.([3])

إضافة إلى هذا، فهو ممن فتح له باب المكالمة والمحادثة في نوم ويقظة فلا يتصرف في مريده بهواه.([4]) وأكد الأحسن البعقيلي([1]) على أن «الشيخ من ينهضك إلى طلب الله حاله، ويدلك

(1)- نفسه، ج 2، ص 190.

([2])-البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي من الكرم الكافي على جواهر المعاني، المطبعة العربية، الطبعة الأولى، 1353هـ ، ج 1، ص 130.

([3])- المصدر نفسه، ج 1، ص 273.

([4])- نفسه، ص 276.

على الله مقاله... فبقدر الاعتقاد والنيات تربح من شيخك، فإن اعتقدت ولايته كنت وليا منه، وإن اعتقدت مساواة خسرت في بحارة العارفين، والخسران هو البخس والنقصان»([2])

وقد قسم الأحسن البعقيلي الشيوخ إلى ثلاثة: شيخ التعليم، وشيخ التربية خالط الحكماء وشيخ الترقية.([3])

- شيخ تعليم لمجرد الأحكام لا غير فهو واجب.([4])
- شيخ تربية وهم على عدد المواقف التسعة:

« - شيخ في باب التوبة أبدا إلى موته، فلا ذوق له ولا يدل تلامذة إلا على العمل وترك المعاصي.

- شيخ في موقف الاستقامة، فلا يدل عمره كله إلا على الاستقامة ظاهرا.
- شيخ في مقام التقوى أبدا، فذلك حده فلا يدل إلا عليها، وكل واحد ناصح دال على الله بقدر مقامه وهو كبير جدا في بابه فتظهر أسرار موقفه على أتباعه، وتعد كمالا في بابه.
- شيخ في الإخلاص فلا يدل إلا على أمحاض العبادة الظاهرة لله مع طلب الثواب وهم أكثر الناس عملا.

([1])- الأحسن بوجمعة البعقيلي، أحد السوسيين البارزين المشهورين في آفاق الطرق الصوفية، نزل إلى البيضاء عام 1348هـ/ 1929م وأنشأ زاوية وكان إماما بها. أذن له في الطريقة كل من الحسين الإيفراني، وعبد الله القشاش السويري. كما أجازه أيضا علي الإسيكي.

وكان من المتوغلين في الطريقة التجانية، وله فيها اعتقاد كبير. توفي بالدار البيضاء عام 1368هـ / 1940م. راجع: المختار السوسي، المعسول، مطبعة النجاح، البيضاء، 1380هـ، ج 11، 155- 186، ج 8، ص 59. مُحَّد حجي، موسوعة أعلام المغرب دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/ 1996م، ج 9، ص 3244. عبد العزيز بنعبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى، 2001م، ج 2، ص 256. عبد السلام بنسودة، إتحاف المطالع في وفيات القرنين الثالث والرابع عشر، تنسيق وتحقيق مُحَّد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، ج 1، ص 519. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة 10، شتنبر 1996، ج 2، ص 185.

([2])- البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي ... مصدر سابق، ج 1، ص 278.

([3])- البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي.... مصدر سابق، ج 1، ص 299. البعقيلي الأحسن، إراءة عرائس ... مصدر سابق، ج 2، ص 47.

([4])- البعقيلي الأحسن، اراءة عرائس... مصدر سابق، ج 2، ص47.

- شيخ في باب الصدق عمره كله، فلا يتكلم إلا فيه وفي أسراره، وله تجليات وأسرار وقف معها ومن تبعه.
- شيخ في موقف الطمأنينة فلا يدل إلا على ذكر الله أنفاسه، لما وجده من الحلاوة ويوصل إليها تلامذة، وهو شيخ كبير عارف في بابه، وهو قريب من الصفاء.
- شيخ في المراقبة مقام الرضى عن الله وهو دائم المراقبة ولا يدل إلا عليها، وهو شيخ ناصح على الله ويوصل إلى مقامه أتباعه.
- شيخ في مقام المشاهدة فلا يدل إلا على الله بفنائه وصحوه وحاله وإشارته... تعرفه تلامذه وتهابه بتبدل ألوانه ومناطقه وهو أكبر كبير ممن قبله.
- شيخ كامل في مقام النفس الكاملة العارفة في موقف المعرفة بالله، وهو عزيز غريب قليل الأتباع كثير الإنكار عليه لتمييزه كل المواقف، ويخاطب كل أحد بقدر مقامه، وهو منزل منزلة الحامد العامي، فلا تعرفه العلماء لكونه في حضيض جمود التواضع...»([1]).

وقال صاحب البغية: «وقد يجتمع الثلاثة [شيخ التعليم وشيخ التربية وشيخ الترقية] في واحد وهو نادر في هذا الزمان لتقاصر الهمم وضعف الاستعدادات ومن الأصل في التربية بالهمة التي هي وظيفة شيخ الترقية حديث أنس رضي الله عنه: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء صنعته لما صنعته، ولا لشيء تركت لما تركت" الحديث. ولا يشك متصف في اجتماع الثلاثة في شيخنا رضي الله عنه حسبما يحققه النظر في سيرته والاستقصاء للأخبار المتعلقة بأحواله في دلالته على الله تعالى وتربيته»([2]).

والخلاصة أن التجانيين بينوا أن الشيخ ضرورة لا سبيل لتركها، مؤكدين على أن وجوب توفر الحقائق الثلاث فيه كما توفرت في الشيخ التجاني، وهي: التعليم، والتربية، والترقية، إضافة إلى إصرارهم على القول: إنه لا يحل لأحد منا أن يدعي تربية ولا ولاية لاختتامها بالقطب المكتوم، الشيخ أحمد التجاني.([3]) أي أن الشيخ في الطريقة التجانية لا يصح إطلاقه على أحد غير الشيخ أحمد التجاني.

([1])- المصدر نفسه، ج 2، ص 48- 49.

([2])-بن السائح مُحَمَّد العربي، بغية المستفيد لشرح منية المريد، ضبطه وصححه عبد الوارث مُحَمَّد علي، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1323هـ، 2002م، ص 133.

([3])-البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي... مصدر سابق، ج 1، ص 299.

ويفيد هذا أن على المرشح للتصوف التجاني أن ينقاد لسيده كالجثة بيد غسالها، فهو يعلمه أن الطاعة هي أول مظهر ديني([1]).

1- 1- كيفية الاتصال بالشيخ:

يؤكد الشيخ أحمد التجاني أن عملية معرفة الشيوخ والاتصال بهم ليست بالأمر السهل، «لأنهم اختلطوا بصورة العامة وأحوالهم، ومن سألهم عن هذا الحال نفروه وطردوه، وحلفوا له ما عندهم من هذا الأمر شيء، والعلة الموجبة لهم لهذا أنه قد فسد نظام الوجود بمشيئة الحق سبحانه وتعالى التي لا منازع لها، وليس لكل آدمي إلا السعي في أغراضه وشهواته بالإعراض عن الحضرة الإلهية، وما تستحقه من توفية الحقوق والآداب، وليس للعامة في هذا الوقت [...] السعي للأولياء إلا لأغراض فاسدة يريدونها من التمتع بالدنيا ولذاتها وشهواتها، والنجاة من المصائب... فلما عرف العارفون ما في العامة من هذا الأمر احتجبوا عن العامة وطردوهم بكل وجه، وبكل حال. وكان منهم أن يبقوا في وسط العامة...»(2).

وأضاف أيضا قائلا لمن «رام الوصول إلى شيخ في هذا الوقت ولم يجد حيلة في معرفته، وخاف من الوقوع في حبائل الكذابين، فعليه بالتوجه إلى الله بصدق لازم، وانحياش إليه بقلب دائم، ودوام التضرع إليه والابتهال إليه في الكشف له عن الشيخ الواصل الذي يخرجه من هذه الغمة، وأن يدله عليه، وأن يوقفه لامتثال أمره حتى يقع في الغرق في لجج بحره فلا حيلة له إلا هذا»(3).

أما عن كيفية الاتصال بالشيخ فقد بين صاحب الشرب الصافي أن محبة الشيخ للمريد ترياق للاتصال مع الشيخ فأشعة محبته لمريده تحوطه معه وتحوشه، فمحبة الشيخ أنتجت محبة المريد.([4]) يعني هذا أن الشيخ ضرورة لازمة للمريد في التجانية، ولا يعوضه أي شيء.

([1])-LIMAN Haifa Malouf, Tidjaniya, Sanusiya and Mahdiya as Studied, in English Works» Revue d'histoire Magrebine, N° 4, juillet 1975, Tunis, 164.

(2)- نفسه، ج 1، ص 91.

(3)- نفسه، ج 1، ص92.

([4])-البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي... مصدر سابق، ج 1، ص 275- 276.

2-1 - الاختيار للشيخ ووزن أفعاله وأحواله:

من بين الأسئلة التي طرحت على الشيخ التجاني ما يتعلق بتصديق الشيخ، ووزن أفعاله وأحواله، وكان الجواب عليه أنه لا يصلح ولا يفلح من اتبع ذلك. لأن ذلك مغلاق لأبواب الله تعالى، فإن من أراد ذلك واتبعه في جميع الخلق، أراه الله تعالى صفة النقص في كل مخلوق، فلا يطمئن لأحد. وأن التصديق للشيخ أمر إلهي يضعه الله في القلوب فلا يقدر صاحبه على الانفكاك عنه.(1)

1- 3- طلب الشيخ هل هو فرض:

طرح سؤال عن طلب الشيخ هل هو فرض على كل فرد أو على البعض دون البعض، وما السبب؟ فكان الجواب بتفصيل واردا في جواهر المعاني قائلا: «إن طلب الشيخ في الشرع ليس بواجب وجوبا شرعيا يلزم من طلبه الثواب، ومن عدم طلبه العقاب، فليس في الشرع شيء من هذا، ولكنه واجب من طريق النظر، مثل الظمآن إذا احتاج إلى الماء وإن لم يطلبه هلك، فطلبه عليه لازم من طريق النظر وطريق النظر ... من كون الناس خلقوا لعبادة الله، والتوجه إلى الحضرة الإلهية بالإعراض عن كل ما سواها، وعلم المريد ما في نفسه من التثبط والتثبيط عن النهوض إلى الحضرة الإلهية، وعلم عجزه عن مقاومة نفسه بما يريده منها من الدخول في الحضرة الإلهية بتوفية الحقوق والآداب، وعلم أنه لا ملجأ من الله ولا منجي إن قام مع نفسه متبعا لهواه معرضا عن الحق تعالى. فإنه بهذا النظر يجب عليه طلب الشيخ الكامل. وهذا الوجوب النظري أمر وضعي طبيعي ليس من نصوص الشرع، إذ ليس في نصوص الشرع إلا وجوب توفية القيام بحقوق الله تعالى ظاهرا وباطنا على كل فرد من جميع العباد، ولا عذر لأحد في ترك ذلك من طريق الشرع، ولا عذر له في غلبة الهوى عليه وعجزه عن مقاومة نفسه...»(2)

هذا مع التأكيد على أنه لا شيخ يجب طلبه إلا شيخ التعليم « الذي يعلم كيفية الأمور الشرعية التي يطلب فعلها من العبد أمرا ونهيا وفعلا وتركا. فهذا الشيخ يجب طلبه على كل جاهل لا يسع أحدا تركه. وما وراء ذلك من الشيوخ لا يلزم طلبه من طريق الشرع، لكن يجب طلبه من طريق النظر، بمنزلة المريض الذي أعضلته العلة، وعجز عن الدوام من كل وجه، وانعدمت الصحة في حقه فنقول:

(1)- نفسه.

(2)- نفسه، ج 1، ص 92.

إن شاء البقاء على هذا المرض بقي كذلك، وإن طلب الخروج إلى كمال الصحة، قلنا له يجب عليك طلب الطبيب الماهر الذي له معرفة بالعلة وأصلها، وبالدواء المزيل لها»(1).

2- حقيقة المريد الصادق:

المريد عند الصوفية هو من لا إرادة له دون مولاه وهي ثلاثة مراتب إرادة التبرك والحرمة وهي لمن ضعفت همته، وكثرت علائقه، وإرادة الوصول إلى الحضرة وهي لأهل التجريد وقوة العزم، وإرادة الخلافة وكمال المعرفة وهي لمن ظهرت نجابته، وكملت أهليته، وصرح له بالخلافة من شيخ كامل.(2)

2- 1- مواصفات المريد الصادق

سئل الشيخ أحمد التجاني عن حقيقة المريد الصادق فأجاب محددا ذلك بمجموعة من الشروط والمواصفات:

1- الذي عرف جلال الربوبية، وما لها من الحقوق.(3)

2- الذي عرف ما يجب له تعالى من الخدمة والأدب.(4)

3- الذي عرف عجزه عن تقويم هذه النفس الأمارة بالسوء وعن ردها إلى الحضرة الإلهية.(5)

وهذه المواصفات تجعله يحظى بأمرين اثنين:

---

(1)- نفسه، ج1، ص 93.

(2)- ابن عجيبة أحمد، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ضمن سلسلة نورانية فريدة، السلسلة الأولى، جمع وتقديم العمراني الخالدي عبد السلام، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002، ص 83.

(3)- نف البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي... مصدر سابق، ج1، ص 88.

(4)- نفس المصدر.

(5)- نفسه.

1- يكون الشيخ أقرب إليه من طلبه، وذلك لمكان صدقه، إذ يلقى الائتلاف بينهما والأدب، فينفتح باب الوصول.(1)

2- يعلم أن الشيخ من عبيد الحضرة، ويعلم ما يجب للحضرة من الأدب، فإذا علم هذا يصحبه ليدله على الله وما يقربه إليه.(2)

والمريد الصادق، أيضا كما بينه الشيخ أحمد التجاني، يحدد في علاقته بالشيخ إذ عليه أن يبتعد عن الأمور التي تكون سببا لطرده عن الشيخ ومنها:(3)

- الأغراض سواء أكانت دنيوية أم أخروية.
- الاعتراض بالقلب واللسان.
- كزازة المريد من ظهور بشرية الشيخ بأمر لا يطابق المعرفة
- سقوط حرمته من القلب.

ومجمل القول يؤكد الشيخ التجاني على المريد بأن يكون مع شيخه كما هو نبيه ﷺ في التعظيم والمحبة والاستمداد والانقطاع إليه بالقلب.(4)

2- 1 - الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده:

مما يؤكد عليه الفكر الصوفي التجاني الأصيل أيضا الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

---

(1)- نفسه، ج1، ص 88- 89 .

(2)- نفسه.

(3)- نفسه، ج1، ص 89.

(4)- نفسه، ج1، ص90.

- أن لا يشارك في محبته غيره ولا في تعظيمه ولا في الاستمداد منه ولا في الانقطاع إليه بقلبه.(1)

- ألا ينسب ما عنده من الفتح والأسرار لغير شيخه.(2)

- الاعتقاد في الشيخ وتصديقه في جميع أقواله.(3)

تعتبر إذن هذه الشروط من الأساسيات التي يؤكد عليها الشيخ أحمد التجاني في طريقته الصوفية حتى يكون المريد بذلك مشدودا إلى الطريقة وشيخها بكل جوارحه. وبهذا يمكن تأكيد دور الشيخ في الفكر الصوفي التجاني، ذلك أنه منذ البدايات الأولى للصوفية تم إدراك أهمية وضرورة الموجه الروحي والذي ينقاد إليه ويطيعه المريد طاعة عمياء. فلا يعود يصغي إلى الأحكام هو نفسه، بل يأتمر بأمر شيخه([4]).

ويبرر ذلك بأن «التلميذ لا يصل إلى الله إلا إذا قطع الالتفات عن غير شيخه، بحيث لا يعتقد النفع إلا من شيخه وكل شيء وصل له من الخير فيجزم بأنه على يد شيخه لا على يد غيره، وحيث اعتقد وصول الخير إليه على يد غير شيخه، حصلت القطيعة بينهما»([5])

وبهذا أجمع بعض الباحثين على انعزالية هذه الطريقة حيث لا يمكن للمريد التجاني أن ينتمي إلى طريقة أخرى.([6])

---

(1)- نفسه.

(2)- نفسه.

(3)-الشنقيطي أحمد، الفتوحات الربانية في الطريقة الأحمدية التجانية، ضمن كتاب الفتح الرباني... المكتبة الشعبية، بيروت، لبنان، د.ت، ص 86-94.

([4])- Haifa Malouf LIMAN, «Tidjaniya, Sanusiya and Mahdiya ..op. cit, p163.

(5)- التجاني مُحَمَّد السيد، غاية الأماني في مناقب وكرامات أصحاب الشيخ سيدي أحمد التجاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2004م، ص65 .

(6)-التايب منصف، الإنشاد الصوفي والتاريخ في تونس من خلال السفاين القادرية والتجانية من نهاية القرن 18 إلى نهاية القرن 19، Ibla، العدد 180، سنة 1997، ص 159.

والواقع أنه، إذا كان الشيخ أحمد التجاني، الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده في نقط محددة، فإن أتباعه وضعوا شروطا والتزامات أخرى، وحثوا المريد على أن يقوم بها اتجاه شيخه، وهي:

- اعتقاد الصواب في الشيخ، يقول أحد التجانيين «فاعتقد صواب شيخك وإن بعد عن الصواب في نظرك... فإنه بإذن وعلى صواب فأنت المخطئ وهو العالم وأنت الجاهل»([1]).
- توقير الشيخ ظاهرا وباطنا، وطاعته في كل ما أمر به، وعدم الاعتراض عليه، وحسن الظن به، وأن يقاطع من يكرهه، وأن يحترم أغراضه، وأن يستأذنه في كل أموره من زواج وسفر...، وأن لا يكثر الكلام بحضرته إلا بإذنه... وإجمالا، يجب عليه أن يفعل كل ما يرضي الشيخ، ويجتنب كل ما يكرهه.([2])

وأما من خالف شرطا من هذه الشروط فقد انقطع عن شيخه، ورفع الإذن عنه في الحال. ولا تعود الوصلة الروحية بالشيخ حتى يتوب ويجدد الإذن، ويصدق في التمسك بها، و«من لم يوافق شيخه في اعتقاده يظل من الإنكار في لهب الجمر، والشيخ مصيب على كل حال، فكن معه تربح فإن اعتقد خلاف شيخه انقطع عنه وخسر»([3]).

ويؤكد صاحب الرسالة الموسومة بالحلل الزنجفورية في إحدى التنبيهات على أن «كل من قلد شيخا ودخل عهده وبيعته التي هي بيعة الله وعهده تجب عليه متابعته في السر والجهر والأقوال والأفعال ولا يجد في نفسه حرجا مما قضى ويسلم تسليما ويجزم أن كل ما صدر منه عين الصواب وإن خالف الحق بجميع وجوهه في نظر المريد وظاهر الحال فإن باطنه حق لا محالة فمهما وجد في نفسه حزازة أو جوزت له نفسه احتمال المخالفة للحق فقد خان بيعة الله ونقض عهده وإن كان المريد التابع عالما بخلاف ما ظهر من شيخه فليتهم علمه ولا يتهم شيخه».([4])

وعليه، يتبين أن على المريد في التجانية ألا يستدل على الشيخ بالمسائل الشرعية أو العقلية، بل إن ذلك فيه نقض لعهد الله ومخالفة لأمانته، وأن الفكر حرام عليه، والصمت أولى له، والنظر في الأدلة محصور عليه. وإن كان هذا شأن المريد، فيجب على الشيخ طرده عن حضرته.

([1])-البعقيلي الأحسن ، الشرب الصافي... مصدر سابق، ج 1، ص 274.

([2])-التجاني محمد الشافعي ، الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ص 30.

([3])-البعقيلي الأحسن ، الشرب الصافي... مصدر سابق، ج 1، ص 274.

(4)-أكنسوس محمد ، رسالة موسومة بالحلل الزنجفورية في أجوبة الأسئلة الطيفورية، المطبعة الرسمية، تونس، 1312هـ، ص 14.

والواقع أن، ظهور شيخ الزاوية التجانية الفرعية، ساهم في وضع شروط لتنظيم العلاقة بين الشيخ ومن دونه. وقد حددها صاحب الرماح كما يلي:

- أن المريد إذا تصدر للمشيخة وأراد أن يكون له مريد قبل خمود بشريته وفطامه على يد شيخ فإنه محجوب محب للرياسة لا يجئ منه شيء.([1])

- من تعرض لهداية غيره بغير معرفة فهو خائن، ومن طب غيره بغير علم فهو ضامن، إذ عنده من الجهل ربما أخرج الأدوية عن موضوعاتها وعدل عن مقاديرها فساق المريض إلى الهلكة وعاجله بالمنية. ([2])

- الأخذ من الوارث الكامل، الذي رسخ علمه وقوي عقله وتطهرت نفسه وصدقت فراسته وترجح رأسه وسلمت فطانته وامتحى هواه وانشرح صدره بأنوار المعارف ونفحات الأسرار، وأخذ عن شيخ وارث بهذه الصفات، وأذن له في الانتصاب لهداية الخلق بتخليص أنفسهم من عللها، وهذه الوراثة الحقيقية ثم قال: وأما من لم يبلغ هذه المنزلة من الوراثة ولم يتخلص من تبعات نفسه، فاشتغاله بصلاح نفسه أولى وأسلم من فساد الرياسة، لأنه بما بقي فيه من العلل لا يخلو عن شره، وبالشره تتراكم الظلم فتغيب الحكم والانفعال بها، فالمتعرض لهداية غيره الهداية المشار إليها بغير علم قبل أن تحصل له حقيقة الوراثة، فهو لما عنده من الشره والجهل هالك ضال مضلل..([3])

كما أشار صاحب الرماح إلى أن كل من تصدر للمشيخة بغير إذن شيخ كامل، خطر جدا، لأنه يكون سببا لسوء الخاتمة.([4])

ذلك أن الشيخ يرشد الله به المريدين، ويهدي به الطالبين، وبهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطنا، وذلك أن المشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم، وجعلوا أئمة للمتقين. فالشيخ إذن هو كبير الزاوية ومقدمها وناظرها وهو الذي يولي مقدمي فروع الزاوية أو يعزل بعضهم، وهو في الوقت ذاته، من يعطي العهود والأوراد وهو الذي يتولى الإشراف على أحباس الزاوية، ويتصرف في مداخيلها وممتلكاتها.

وختاما، يمكن القول إن الفكر الصوفي التجاني له خصوصياته، التي وضع الأسس الأولى له، مؤسسه الشيخ أحمد التجاني، مقدما إياه باعتباره نموذجا متفردا ومخصوصا. وقد سار التجانيون على نهج شيخهم فيما يخص موضوع الشيخ ومدى علاقته بالمريد. كل هذا محاولة منهم لضمان

([1])- الفوتي عمر، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم، على حاشية كتاب جواهر المعاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م، ج 1، ص 382.

([2])- المصدر نفسه.

([3])- نفسه.

([4])- نفسه، ج 1، ص 381.

استمرارية وانتشار هذا الفكر عند الأجيال المقبلة، ومن خلال الاهتمام بتعميق التصوف في نفوس مريدي الطريقة وتوسيع نفوذ الزاوية.

وبهذا تكون التجانية تعدت المجال العام الطرقي ويحدد الشيخ المؤسس لنفسه مجالا خاصا يستبعد التبعية لشيخ ما أو لطريقة ما، وقد مكن الدخول في هذا المجال الخاص، الزاوية التجانية، من فرض ذاتها واعتبار نفسها متربعة على كرسي الطرقية.

لائحة المصادر والمراجع:

المصادر:

- ابن عجيبة أحمد، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ضمن سلسلة نورانية فريدة، السلسلة الأولى، جمع وتقديم العمراني الخالدي عبد السلام، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002، ص 83.

- أكنسوس مُحَمَّد، رسالة موسومة بالحلل الزنجفورية في أجوبة الأسئلة الطيفورية، المطبعة الرسمية، تونس، 1312هـ.

- البعقيلي الأحسن، الشرب الصافي من الكرم الكافي على جواهر المعاني، المطبعة العربية، الطبعة الأولى، 1353هـ.

- بن السائح مُحَمَّد العربي، بغية المستفيد لشرح منية المريد، ضبطه وصححه عبد الوارث مُحَمَّد علي، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1323هـ، 2002م.

- حرازم علي برادة، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي العباس التجاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط (1)، 1423هـ/2002م.

- السوسي المختار، المعسول، مطبعة النجاح، البيضاء، 1380هـ.

- الشنقيطي أحمد، الفتوحات الربانية في الطريقة الأحمدية التجانية، ضمن كتاب الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني، المكتبة الشعبية، بيروت، لبنان، د.ت.

- الفوتي عمر، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم، على حاشية كتاب جواهر المعاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م.

المراجع:

- بنعبد الله عبد العزيز، معلمة التصوف الإسلامي، دار نشر المعرفة، الطبعة الأولى، 2001م.

- بنسودة عبد السلام، إتحاف المطالع في وفيات القرنين الثالث والرابع عشر، تنسيق وتحقيق مُحَّد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.

- التايب منصف، الإنشاد الصوفي والتاريخ في تونس من خلال السفاين القادرية والتجانية من نهاية القرن 18 إلى نهاية القرن 19، Ibla، العدد 180، سنة 1997.

- التجاني مُحَّد السيد، غاية الأماني في مناقب وكرامات أصحاب الشيخ سيدي أحمد التجاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2004م.

- التجاني مُحَّد الشافعي، الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت.

- حجي مُحَّد، موسوعة أعلام المغرب دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/ 1996م.

- الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة 10، شتنبر 1996.

- Malouf LIMAN Haifa, Tidjaniya, Sanusiya and Mahdiya as Studied in English Works», Revue d'histoire Magrebine, N° 4, juillet 1975, Tunis.